

شخصية المقاومة الوطنية

توجد اليوم في الأرض العربية عدة صور للمقاومة، بفلسطين وغير فلسطين، لكن وجدنا أنّ (شخصية المقاومة العراقية) ضد المحتل الأمريكي، بالدرجة الأولى، لم يتم تناولها بطريقة (هادئة) تعكس واقع الشخصية الفيزيائي والكيميائي كنتيجة؛ بعيداً عن الديماغوجية السياسية والإعلامية.. مع أو ضد. ونحن هنا نريد العروج على الملامح العامة التي كوَّنت شخصية المقاومة الوطنية العراقية؛ كرؤية للواقع، وإن كانت بعض المعلومات نسبية بسبب انشطار قوى المقاومة، لكن المؤكد أنّ شخصيتها ما زالت متماسكة رغم التعقيم النفسي والدعائي.. والمعلومات هنا مصدرها الإعلام والعوام.

عندما وقع العراق (الدولة والمجتمع والتاريخ والجغرافية) تحت الاحتلال الأمريكي في نيسان/أبريل ٢٠٠٣ ميلادية، كان عدد العراقيين، حسب صافي نسبة الولادات البالغ (٣٪)، قد قارب (٢٥ مليوناً) من العرب والمسلمين وباقي الأقليات القومية والدينية الأخرى، وبحساب إجمالي لا يقف عند كسور الأعداد فإنّ العراقيين كانوا على ثلاث فئات حسب نظام البطاقة التموينية لجميع العوائل العراقية.

١ — العرب المسلمون (٢٠ مليون نسمة) منهم:

(أ) الشيعة (١٠ ملايين من العرب المحليين).

(ب) السُّنة (١٠ ملايين من العرب المحليين).

٢ — القوميات والديانات الأخرى (٥ مليون) منهم:

(أ) الأكراد والتركمان (٤ مليون وأغلبهم من السُّنة).

(ب) المسيحيون والآشوريون والكلدانيون والصابئة والشبك وهم (مليون شخص).

ولا يوجد اليوم من سكان العراق اليهود أيَّة مجموعة سوى الذين تسربوا بعد الاحتلال، كما دخلت بعد الاحتلال مجموعات تصل إلى نحو أربعة ملايين نسمة من خارج العراق أبرزهم من الفرس الإيرانيين وأكراد تركيا وسوريا وإيران، ومن الأقليات التي كانت مقيمة في بريطانيا وألمانيا والدول الإسكندنافية ولبنان والخليج، وهم من مختلف الجنسيات... صرفت لهم وثائق عراقية جديدة.

ونعود لواقع وشخصية المقاومة العراقية... وبادئ ذي بدء يجب الاتفاق أن هذه المقاومة وإن ساهمت بعض المكونات الأخرى فيها بمراحلها الأولى، لكنها كانت وما زالت في أكثر من (٩٥%) منها مقاومة من العراقيين العرب المسلمين السُّنة؛ كحاضنة جماعية على اختلاف تسمياتهم المحلية... لكن هؤلاء العشرة ملايين... ينقسمون إلى الآتي:

أولاً: نحو ربع المليون منهم يشاركون بالعملية السياسية بمختلف الرؤى ووجهات النظر... ونصفهم ممن كان في خارج العراق وعاد بعد الاحتلال... واتخذوا من الوظيفة الحكومية الملاذ وكذلك المشاركة الحزبية والسياسية، بمن فيهم الصحوات، الذين اندمجوا في الوظائف وعددهم تقريباً (٥٠ ألف) شخص، حسب التصريحات الرسمية المعلنة.

ثانياً: نحو ثلاثة أرباع المليون، منهم منتشرون في المناطق الشيعية في الجنوب والكرديّة في الشمال، وقلماً يمارسون نشاطاً سياسياً أو عسكرياً، بمن فيهم السجناء في الشمال والجنوب، الذين يقارب عددهم الربع مليون شخص.

ثالثاً: أكثر من أربعة ملايين، منهم هاجروا وهجّروا إلى خارج العراق (العربي والدولي)، حسبما ذكرت ذلك مفوضية الانتخابات العراقية في أواخر عام ٢٠٠٩م.

رابعاً: خمسة ملايين، الباقية في داخل العراق (الوسط والشمال)، هي الحاضنة لمجموعات المقاومة سواء في المدن أو في الريف (العشائر)، منهم نحو نصف مليون منخرطون بنشاطات المقاومة المسلحة، بشكل مباشر (الرجال) وغير مباشر (النساء). وقد أعلنت مصادر حكومية عراقية عام ٢٠٠٧م أنّ عدد (المسلحين) في الميدان يبلغ نحو (٢٠٠ ألف) شخص، وهذا العدد يستوجب وجود (ضعفهم) لغرض استمرار النشاط اللوجستي،

فيما أشار قادة الجيش الأمريكي إلى أنّ العدد ما بين (١٠٠ ألف و١٥٠ ألفاً)، وتتركز بيئة المقاومة العراقية في أربعة محاور رئيسة هي:

١ — على نهر دجلة، من مدينة الموصل إلى ضواحي مدينة بغداد، مروراً بمدن: الشرقاط وبيجي وتكريت والدور والضلوعية وسامراء والمشاهدة.

٢ — مدينة بغداد بشطريها، الكرخ والرصافة، على نهر دجلة؛ ولأنّ سكان الكرخ من العرب المسلمين يشكلون ما نسبته ٩٥% من مجموع السكان العرب في الكرخ، كانت سخونة المقاومة واضحة في هذه المنطقة، بينما كانت أقل في منطقة الرصافة وفيها نسبة السكان العرب ٨٦%، وذلك لارتفاع نسبة الأكراد والأرمن والسريان في هذا القضاء (الرصافة) مقارنة مع بقية أفضية محافظة بغداد الكبرى.

٣ — على نهر الفرات، من مدينة القائم الحدودية إلى مدينة بابل التاريخية، مروراً بمدن: حديثة وراوة وعانة والرمادي والفلوجة والدورة والإسكندرية والمسيب.

٤ — مناطق متفرقة تستهدف القواعد الأمريكية الجوية والبرية والتي تبلغ أكثر من أربعين قاعدة رئيسة... معظمها في كركوك وديالى والكوت والحزيرة الفراتية.

إنَّ معظم شخصيات المقاومة العراقية هم من رجال الجيش العراقي قبل الاحتلال، وممن التحق بهم من أبناء المدن والعشائر الذين تمَّ تدريبهم لاحقاً في دورات مكثفة على الأسلحة الخفيفة. وتمتاز هذه الشخصية بالثقافة المتوسطة والاندفاع والإرادة والشجاعة... لكن نقطة ضعفها (الاختراق) نتيجة العلاقات المحلية المتداخلة والمصالح المتشابكة والثرثرة الاجتماعية بسبب حبِّ التفاخر والتنافس المبكر في المواقف الشجاعة ضد قوات المحتل الأمريكي، بين زعماء العشائر خاصة، لتسجيل تاريخ بطولي لتلك العشائر والقبائل، خشية سرقته من الآخرين كفضال وطني موروث، كما حصل في الثورات العراقية ضد المحتل الإنكليزي بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية. ولعلَّ الأزمة الحقيقية التي تواجهها منظومة المقاومة العراقية اليوم غياب الشخصية (القيادية)، لكن تتوافر في هذه الجماعة الوطنية ديناميكية حضارة ضاربة في التاريخ، وتستخدمها كمهماز رغم ظلم الجغرافية المفتوحة وطغيان المحتل الأكبر في تاريخ القوى في العالم القديم والمعاصر. أمَّا باقي السمات فهي سمات الشخصية العراقية العربية المسلمة في الظروف الطبيعية، لكن ظروف شخصيات المقاومة استثنائية ومتوترة وصعبة بموجب قانون التحدي والاستجابة.

وهكذا وجدنا في الشخصية الجماعية للمقاومة العراقية النموذجين الفاعلين في فيزياء وكيمياء الشخصية في العمق والأفق، رغم عدم تكامل النموذج في الفعل والتفاعل المثالي... وهذا دليل على نسبية الفرادة

الإنسانية مهما كانت (قوية) مندفعة في حسابات الأرض، لكنها لا تستطيع إلغاء كل حقائق الأرض والتفوق عليها. تقول نتائج التعداد العام للسكان في العراق لعام ١٩٧٧م، بحسب جداول التوزيع الديني للسكان المحليين ما يأتي:

«إن المسلمين في العراق يمثلون غالبية السكان العظمى... أي ما يعادل ٩٧% تقريباً من مجموع السكان العراقيين؛ لذلك فإن بقية الطوائف الدينية الأربعة: المسيحيون ٢,١٤% من المجموع الكلي للسكان العراقيين، واليزيديون ٠,٨٦%، والصابئة ٠,١٤٠%، واليهود ١,٠١%، وطوائف أخرى ٠,٠٩%».

أمّا التوزيع القومي فيشير نفس المصدر إلى ما يلي: «إن العرب يمثلون غالبية السكان العظمى حيث تقرب نسبتهم من ٨٢% من مجموع السكان العراقيين، ويمثل الأكراد حوالي ١٦%، والتركمان حوالي ١,٢%، والسريان ٠,٥٣%، والأرمن ٠,١٢%، والأكراد الفيلية ٠,١٠%، والفئات القومية غير المبينة ٠,٣٥%»، رغم أن هذه النسب قد تعرضت للتغيير والانقلاب بعد الاحتلال الأمريكي بشكل كبير بسبب ما سمي بالتهجير الداخلي (*).

إن شخصية إنسان المقاومة هي شخصية الأزمة متكيفة مع البيئة الالاعادية التي نستطيع تسميتها بيئة الصراع الساخن الأبعاد، بمعنى أن

مواصفات وسمات رجال المقاومة هي صفات وسمات معاكسة لعموم الناس الاعتياديين؛ وبالتالي فإنَّ فيزياء وكيمياء هذه الشخصية تختلف عن فيزياء وكيمياء العوام، من حيث درجة الاستعداد والتحفز، وإنَّ كانت تلتقي مع الأساسيات الوطنية، لذا يكون الإبداع الميداني قرين شخصية المقاومة ضد المحتل، فالخطر ينمِّي القدرة الإبداعية الاستثنائية إذا كانت باتجاه المستقبل، خصوصاً في ثلاثة مجالات:

الأول: تصنيع مستلزمات حرب العصابات السريّة... ذات النَّفس الطويل.

الثاني: التضليل لغرض التمويه والمباغنة وتوجيه الضربات السريعة...

الثالث: اختراق منظومة المحتل، بشرياً وفتياً، بوسائل فعالة رغم محدودية التقنية فيها قياساً لما يمتلكه جيش الاحتلال من تقنية عالية.

لقد تعرّضت المقاومة العراقية لحرب نفسية وخلط أوراق غير مسبوق من خلال افتعال أعمال إرهابية قامت بها قوى الاحتلال وألصقت بها، تتعلق باستهداف المدنيين، وللتاريخ نقول: إنَّ المقاومة العراقية واجهت وتواجه أضخم وأقوى جيش ظهر في التاريخ... ورغم التحدي فإنَّ الاستجابة كانت إجبار قوات الاحتلال على الانسحاب من المدن بنسبة ٨٠% خشية التعرض للخسائر البشرية الكبيرة... فقد تجاوز عدد العمليات لمنظومة المقاومة ضد قوات الاحتلال (٢٠٠) عملية يومياً، بما

يعني وجود ما لا يقل عن ألف رجل من المقاومة يومياً في ساحات
المواجهة، مقابل (١٥٠ ألف) عسكري أمريكي و(١٥٠ ألف) مسلح من
الشركات الأمنية الخاصة، و(٥٠٠ ألف) رجل أمن عمومي. وفي جميع ما
تقدم، فنحن نعني بالمقاومة تلك التي حاربت وتحارب الاحتلال الأجنبي
بدون تعرضها للسكان المحليين من العراقيين.